مراجعة اخرى لكتاب اميل توما ، **جذور القضية الفلسطينية**
(مركز الابحاث في م.ت.ف.، بيروت ١٩٧٣).

هل كتابة التاريخ الفلسطيني ترف اكاديمي ، كما أصر احد الاصدقاء على القول ؟ هل الاهتمام بالماضي ، أقصد بحركة الشعب التاريخية ، هو لا اهتمام في اولويات النضال على الجبهة الثقافية ، بل السياسية ؟

شخصيا، أعتبر كتابة التاريخ، وعلى الخصوص تاريخ فلسطين ، مهمة نضالية راهنة ، بل وأشد مباشرة من كثير من القضايا الاخرى . ويجب ان اؤكد — بادىء الامر — ان المساهمة في مناقشة القضايا اليومية لحركة التحرر العربية ، والفلسطينية بخاصة ، مهمة يجب أن نضعها جميعا نصب عيوننا . ولكن من قال ان كتابة التاريخ ليست مساهمة مباشرة في القضايا الراهنة ؟ وليس شعب فلسطين ، بالرغم من مختلف الخصائص التي تميزه وتحدد هويته المتفردة ، بخارج عن المقولات العامة التي تحكم حركة الشعوب وتطورها . ان عملية اعادة كتابة التاريخ الفلسطيني تمس بشكل وثيق القضايا المعاصرة الملحة ، فمن خلال تحديد الدروس المستفادة للخبرة الشعبية الفلسطينية عبر مسيرة نضاله الطويلة ، بالاضافة الى الاسترشاد بخبرات الشعوب وبالاستفادة من الارث الثوري الانساني ، تستطيع حركتنا المعاصرة ان تجتاز مراحلها المتتابعة بنجاح كبير .

التأريخ (كتابة التاريخ) الموضوعي هو التأريخ السوسيولوجي : الكشف عن المكونات البنيوية للاحداث التاريخية ، المكونات الفعلية لحركة الواقع الاجتماعي ، وتفاعلات هذا الواقع في الزمان والمكان ، الحدث السياسي لا يمثل نفسه من ثمة ، انه يمثل حركة شعب ما في منطقة ما ، في مرحلة ما ، في عصر ما . بلغة اخرى ، التاريخ ليس سردا قصصيا للاحداث ، انه **اعادة تشكيل للواقع الاجتماعي** في جملة تفاعلاته وتعقيداته ، التاريخ بالتالي لا يصنعه شخص سياسي فحسب، يصنعه شعب ضمن ظرف محدد ومرحلة محددة . وبالنسبة لشعب فلسطين، جرت احداثه التاريخية ضمن مرحلة صعود الامبريالية عالميا : سيطرتها المباشرة على ثلاثة ارباع المعمورة ، واعادة تكوينها الفعلية للبناء الاجتماعي لكل المجتمعات التي سميت اخيرا بلدان العالم الثالث ، ورسمها حتى لمسار التطور لهذه البلدان ومن هنا ، فلقد كانت المهمة النضالية اكبر من الحجم الحقيقي للقوى الذاتية لشعب فلسطين ، هذه القوى المحدودة لشعب مستعمر ، متخلف ، يواجه اضطهادا مثلثا (ان صح التعبير) وليس مضاعفا فحسب (الامبريالية البريطانية ، والصهيونية ، ثم التخلف الاجتماعي نفسه) .

قد يقول بعضهم ، ما لكم وهذا التركيز على التاريخ ؟ ان مئات الكتب والدراسات التي نشرت وتنشر باستمرار لم تترك مجالا لمستزيد . ومع ان هذا القول يبدو موضوعيا للوهة الاولى ، بيد أنه في الحقيقة لا ينطوي الا على الصورة فحسب . ان عشرات الكتب الهامة عن القضية الفلسطينية قد جعلت مجال البحث أرحب وأقل خطأ ونقصا . ولكن الا يعتقد القارىء معي ، ويشعر ، ان التاريخ الفلسطيني بحاجة لكشف مستمر ، اذ كلما كشفنا عن جانب غامض من هذا التاريخ ، اكتشفنا بآن واحد نقصا كبيرا في هذا التاريخ نفسه . ثم من قال أن التاريخ الفلسطيني قد تمت كتابته حتى هذه اللحظة ؟ ان المحاولات والكتابات ، التي يثير بعضها الاعجاب لدرجة كبيرة ، ستكون جملة محاولات وكشوف كمية ستضاف الى بعضها ، وسترشد وستسهل العمل القادم ، التالي ، عن التاريخ الفلسطيني : العمل الذي ينبغي ان يضطلع بأدائه حلقة بحث ومجموعة من الدارسين ، لان الكتابة الموضوعية للتاريخ تستلزم العودة الى المكونات والمسببات : الاصول الاقتصادية — الاجتماعية للاحداث ، وعلاقاتها الجدلية المتشابكة عبر تطور هذه الاحداث نفسها ، وكذلك عبر تفاعلها بالدول المحيطة ، وبالمنطقة ، وبالعالم . بالاضافة الى التسلح بنظرية ترشده تهديه سواء السبيل . ومن هذا المنظور ، مسألة التأريخ هي **مسألة المنهج** المستخدم . اننا لا نستطيع ان نزعم ان كل كتاب تناول الحوادث الماضية بالسرد وبالتحليل غدا كتابا تاريخيا . البحث التاريخي ، الذي يستحق بنظرنا هذه التسمية ، هو البحث الذي يكشف الاسباب